(ISSN: 2959-5436) مجلة جامعة سومر للعلوم الانسانية (SUJHUS)
عدد خاص بوقائع المؤتمر العلمي الدولي الثالث للعلوم الانسانية والتربوية والنفسية الذي اقامته جامعة سومر للفترة من 24-25 نيسان 2024 /القسم الثاني/ محور علوم القرآن ومحور اللغة العربية ومحوراللغة الفارسية,
الصفحات 1–11

الواقع والمتخيل في رواية بنات غائب طعمة فرمان للروائي خضير فليح الزيدي

ا.د. ضياء غني العبودي[1]*

[1] *كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة ذي قار، ذي قار، العراق*

الملخص

تعد رواية " بنات غائب طعمة فرمان لخضير فليح الزيدي " واحدة من الروايات الحديثة التي اعتمدت على عنصر الواقع والخيال ، فهي تنطلق من الواقع لتفاجئ القارئ بدخوله منطقة العجائبي الذي يتصف بكسر افق التوقع ، إذ عنصر المفاجأة والتوتر ، فهو يعمد على عنصري الحضور والغياب ،حضور الواقعي وحضور العجائبي وتناوبهما في الغياب واحيانا التعايش بينهما .مما يخلق التفاوت في ذهن القارئ بين الواقعي و وبين تلقيه، لذا جاء البحث ليجيب عن إشكالية مهمة ، كيف تم بناء النص الروائي من الواقع ؟ وكيف دخل في العجائبي ؟ وكيف تم المزاوجة بينهما؟ وعلاقة ذلك بالتاريخ ، وهل كانت العودة إلى التاريخ مقصودة من أجل الوقوف عند بعض الحقائق ؟ معتمدا على المنهج البنيوي في تحليل النص ،لان السردية نشأت في ظلال البنيوية .

الكلمات المفتاحية: الواقع ، المتخيل ، التداعي ، العنف ، الزمن.

Reality and imagination in the novel Daughters of Ghaib, Touma Farman, by the novelist Khudair Falih Al-Zaidi

Professor Dr. Dhyaa.g. aluboodyu[1*]

[1] *College of Education for Human Sciences, University of Dhi Qar, Dhi Qar, Iraq*

Abstract:

The novel "Girls of the Absent Toma Farman" by Khudair Falih Al-Zaidi is one of the modern novels that relied on the elements of reality and imagination. It starts from reality to surprise the reader by entering the region of the wondrous, which is characterized by breaking the horizon of expectation, as it has an element of surprise and tension. It relies on the elements of presence and absence, presence The real and the presence of the miraculous, and their alternation in absence and sometimes coexistence between them. Which creates a disparity in the reader's mind between the real and its reception. Therefore, the research came to answer an important problem: How was the fictional text built from reality? How did he enter into the miracles? How were they paired? And the relationship of this to history, and was the return to history intended in order to find out some facts? Relying on the structural approach to analyzing the text, because the narrative arose in the shadows of structuralism.

Keywords: reality, imagination, association, violence, time.

* **Email address: dr.dhyaa.g.aluboody@utq.edu.iq**

المقدمة:

يعرف الواقع بانه تصوير الروائي لنتائج علاقاته الثقافية والاجتماعية والإنسانية. في حياته اليومية. (1) فالواقع هو تصوير للحياة بكل تفاصيلها. ومحاولة مقاربته إلى الفن بالاعتماد على ما يمتلكه الأديب من مهارة في توظيف آلياته الفنية. والواقع ما يدل على الحقيقة سواء أكان في الماضي أو الحاضر أو التي ممكن أن تقع ، وهو ما يرتبط بمفهوم الواقعية التي تحاول ((تصوير الحياة الطبيعية بأوسع معانيها ، وبأدق أمانة ممكنة وهي بهذا المعنى ترفض أن ترفع الواقع إلى مستوى المثال ، أو بمعنى آخر ترفض تصور الواقع في هيئة المتكامل أو المثالي من أجل أغراض معينة ، أهمها تحقيق الجمال والمحافظة على كمال الأسلوب كما ترفض أن تعالج الموضوعات التي تسمو عن عالم الواقع إلى ما وراء الطبيعة)) (2) .

ولعل أقرب مفهوم لذلك ما يعرف بالواقعية السحرية التي تقوم على ((نسيج فني مبتكر يجمع بين نقيضين متكاملين بين أحداث واقع المعيش وعناصر الفانتازيا اللامعقول ، حيث يختلط الواقعي والفانتازي اختلاطا يزيل الفواصل بينهما)) (3) لذا يلتقي مع المتخيل لأنه يحيل على عوالم لا تحقق وجودها إلا في مخيلة المؤلف والقارئ وهذا المتخيل هو مجال إنتاج الصور عموما أي مجموع منتجات ملكة التخيل أو المخيال من مستودع التصورات والرموز والأساطير(4) فالتخييل قائم على توهم وجود اشياء غير موجودة في الواقع .

فالأديب يعمل على استدعاء مادته من الواقع المعيش ثم يعمد إلى توظيف آلياته السردية لينقل النص من الواقعي إلى التخييل . فالواقع الذي يعيشه العراق بكل تحولاته العنيفة ، وتغيب كل ما هو إيجابي دفع الأديب إلى ان يلجأ لأدوات جديدة تجعله يكسر نمط البناء الفني التقليدي للرواية ويوظف العجائبي . لذا يعد من الصعوبة الفصل بين الواقع والمتخيل ، ومن الصعوبة وضع الحواجز بينهما ، فما يكون واقعياً ممكن ان ينتقل إلى الخيال ، إلا ان الخيال يرتبط بالذهن أي أنه يحتاج إلى التمعن ليمكن للقارئ أن يعيشه ، بينما الواقعي يمكن ان يحسه ويدركه بيسر . لذا يعمل الروائي على الانطلاق من الواقع لينتهي بالخيال كي يكون الخيال أكثر تقبلاً من القارئ . اذ يرى شولز ((إن ما تنتجه المخيلة هي أشياء حقيقة ... ، بمعنى أننا نتخيلها فعلا ، إن تكن لدينا فكرة أو حلم ،فإن التفكير والأحلام هي في ذاتها أشياء حقيقة))(5) إذ تتقاطع في رواية (بنات غائب طعمة فرمان) ثلاث مستويات الواقعي والتاريخي والعجائبي ، فيستدعي الروائي روائيا غائباً عن الوجود ، ثم يعمد إلى البحث عنه في الواقع ، وخلال هذه الثيمة يبدأ الروائي في الغوص في قاع المجتمع العراقي الواقعي والافتراضي ، الواقعي متمثلا في طبقات المجتمع وتغير حال بغداد وما آلت إليه بعد التغيير ، والافتراضي من خلال استدعاء شخصيات روايات الغائب غائب طعمة فرمان ومحاورتها وفسح المجال لها للحديث عمّا يدور في مخيلتها .

وتعتمد الرواية على الميتاسرد بدءً من العنوان (بنات غائب طعمة فرمان) فهو عنوان لرواية مخطوطة تركها الروائي في مصنع صديقه المقتول البيرقدار ، التي حاول فيها الغائب ان يتحدث عن هذه العائلة بما يحمل لها من ود وصداقة . و اعتمد الروائي على مجموعة من العتبات ليفسح المجال للقارئ للتسلح بمحمولات معرفية قبل الدخول في أبواب الرواية ، فاختار خمسة عشر عنوانا تحمل متغيرات الأنواء الجوية ، التي تنسجم مع أحوال الشخصيات وما تمر به من تقلبات نفسية ، فضلا عن عشرة عناوين تتعلق بشخصيات الرواية وما تمر به من ظروف .وهذه العناوين هي العناوين ((من تراب ، رياح نشطة مصحوبة بزوابع نفسي ،غبار متصاعد ، سماء ملبدة بالغبار تصحبها ـ بمشية الله ـ زخات شوق جارف ، "أجواء بغداديّة غير مستقرّة"" الحالة من غائم جزئيًّا إلى غائم ممطر مع زوابع رعديّةٍ تسبّب أفكارًا جارفة ،"كتلة هوائيّة معتدلة مع تقلّبات جوّيّة محتملة" ، صحو كاذب ،"رياح شرقيَّة ومرتفع جويّ يغطّي سماء المدينة" "نبوءة

بمنخفض جوّيّ خطير "غيوم قطنية ، "انخفاضٌ طفيفٌ في درجات العاطفة ليلًا" ، عاطفة الخمسين ،"اعتدال متوقّع للأجواء في ساعات المساء" فوق معدلاتها ، اكتمال القمر هذه الليلة ،"أجواء متذبذبة تهبُّ فوق فضاء الهوى"،" انتصاف ليل الحبّ في بغداد وضواحيها "،تاريخ العائلة ، مصنع البياض ، هدوء حذر ، تحولات في ذهن مجنون ،غائب يمشي في نومه ، الاحتمال المفقود ، بلا راس ، تحقيق)) إن الخيال الذي خلقه الزيدي جاء ليكشف مأساة الواقع الذي يعيشه المواطن بشكل عام والمثقف بشكل خاص فهي عناوين تعكس حالة التغير في الشخصيات أو البلد بشكل عام .

- **الواقع والمتخيل في الرواية :**

يسير العمل الروائي في موضعين مختلفين ، الأول يقوم على استحضار شخصية الروائي غائب طعمة فرمان بعد اعلان وفاته واستحضار شخصيات رواياته السابقة ومحاكمتها للكاتب ومحاولة الخلاص من وضعها النصي، والثاني اكمال مخطوطة رواية بعنوان بنات غائب طعمة فرمان تركها عند البيرقدار صديقه الغني صاحب معامل القطن دون ان يكملها ، وما يصاحبها من عملية البحث عن الروائي صاحب النص . ومن خلال ذلك يسأل الحاضر وما آلت إليه الأوضاع في العراق بعد التغيير . لذا يقترب الروائي من الوعي الكامن الذي يكتسبه من فهم الحقائق الاجتماعية للوضع التاريخي الحاضر بكل تعقيداته ، وبإظهار سلسلة الأستار القائمة بين التأريخ كما هو ، والتأريخ كما ينبغي له أن يكون .(6) .

فالروائي يصور ما يحلم به أو ما يتمنى أن يكون ، فخضير الزيدي يصور واقع بغداد بشكل خاص وواقع العراق بشكل عام، فضلاً عن واقع الأدب والجمعيات التي شكلت بعد 2003 وحقيقة تلك الجمعيات ، ومظاهر القهر والعنف وضياع الوجه الحضاري لبغداد .لذا تستحضر الرواية أسماء الأماكن وظروف الحقبة التاريخية ، لاسيما هاجس القتل والعنف .

إن اعتماد الروائي على التخييل يؤدي إلى وجود عمل فني بامتياز لأن مثل هكذا بناء يحتاج تقنيات سردية وأساليب فنية تخلق عالما خاصاً ، يعرض لنا ما هو طبيعي بصورة جديدة تجذب القارئ وتشده له ، بما تمتلك من وسائل البناء وأدوات شخصيات أمكنة وأزمنة وأحداث تولد لنا عملا متكاملاً . يخترق فيها الروائي كل هذه الأدوات من خلال خلق شخصيات وهمية أو أمكنة لا وجود لها أو احداثاً متخيلة ، ويتلاعب بالزمن مما يؤدي إلى تشظي الزمن باعتبار التشظي عنصرا شائعاً في نصوص ما بعد الحداثة ، ومن ثمَّ تشظي الشخصيات لتكشف صورة المجتمع العراقي وما شاع فيه من تيارات مختلفة ومتصارعة .كما في اعتماده على الحلم وذكر شخصيات روايات غائب ((ظلّ الغائب حتّى العام 2006 يغطّ في نومته الطويلة. فطار به الحلم، ونقله أوّلًا إلى حيّ "المربّعة" في وسط رصافة بغداد. وكانت تلك العودة بدعوة جماعيّة من أغلب الشخصيّات التي نسجها في رواياته: خاجيك، ودبش، ومظلومة، وكريم داود، وخالة نشميّة، وصاحب البايسكلجي، وحمادي العربنجيّ، وابن الحولة، وتماضر، ونوري السّائق، وسليمة الخبّازة، ومصطفى الدّلّال. كلّهم ذيّلوا رسالتهم العاجلة بتواقيعهم، بل إنّ منهم من بصم بإبهامه. وسليمة بالذات رسمت قلبًا وثقبته في الوسط بجمرة سيجارتها. ثم شرعوا يصرخون في بطون الأزقّة المظلمة. وفي لمح البصر أصبحت تلك الشخصيّات تسبح في ماء حوض زجاجيّ وتترصّد الفرصة للنطّ منه واقتحام خلوة صانعهم في سباته الطويل، وهي لا تكفّ عن الصياح والاستغاثة لانتشالها من حالة البؤس الأسطوريّ التي ألزمها غائب بها على مساحة الورق المصفرّ، مُطالبةً إيّاه بالقدوم لإنقاذها من الخراب الذي حلّ ببغداد بعد رحيله عنها. وكانت منذ تخطّيها أسوار رواياته وهروبها إلى أصقاع المدينة بحثًا عن ملاذٍ لها قد أدركت ألّا حرّيّة لها خارج أسر ورق الروايات.))(7) .ولنا ان نقر بحقيقة مفادها أن الواقعية لا تتعارض مع التخييل ، لان كل عمل فني يلجأ فيه الكاتب إلى التغيير والحذف والإضافة ، واستخدام تقانات السرد ، يجعل من النص نصاً تخييليا.

إن من يقرأ النص يعتقد مثل هذا الذكر هو نص تأريخي أو سيرة لغائب طعمة فرمان ، فهو يشير إلى التقاطع مع سيرة الروائي غائب طعمة فرمان بشكل واضح ، وصارت شخصية النص تقترب من شخصية الروائي الزيدي . فهناك تلاقي بين الشخصية الحقيقية والشخصية التخييلية ، وهو تلاقي يخلقه الروائي نفسه . لأن ما تأخذه الرواية من الواقع أو الحقيقة يتحول إلى نص فني متخيل ، فلا تطابق بين الواقع والتخيل ، فشخصية غائب في الرواية تختلف عن شخصية غائب في الواقع ، لأنها دخلت العمل الفني وخضعت إلى ميول ومشاعر الروائي الزيدي ، فالشخصيات لا تتطابق مع الأشخاص .

فتحديد مكان غائب طعمة فرمان في المربعة في بغداد حتى وأن كان واقعيا ، فإنه يظل مكاناً وهميا تخييليا مكانه النص فقط . فهو وغيره من الأمكنة التي ذكرت في الرواية وان كانت موجودة في الواقع لكنها تدخل في حيز المحتمل . ولا يبقى من هذه الأمكنة الا التسمية ، بحسب زاوية النظر لها ومن ثم إضافة شيء من مخيلة الروائي الى المكان وذاكرته التي انتجت المكان.

لقد استطاع الزيدي عن طريق السير في عالمين متوازيين أن يعبر عن الهموم الاجتماعية والسياسية التي تعيشها بغداد . فضلا عن اختراق دواخل شخصياته ليعبر عن الحالة النفسية التي تعيشها ، والصراع بين الأمنيات التي تحاول تحقيقها وبين مرارة الواقع الذي تعيشه .لذا ينقلنا إلى عالم عجائبي من خلال تصوير مأتم الروائي الذي توفي واقعا في لندن عام 1990ليتخيل هذا الموقف وحضور مختلف الشخصيات ((كلّ مجموعة معزّين تدخل "مسجد الرحمة" في منطقة "سيّد سلطان علي" الأثرية لِتتلو "سورة الفاتحة" بخشوع على روح الفقيد الحاضر بشخصه في الصّفّ الأول. وإنّ ذلك لمفارقة حزينة بحقّ. وبعد أن يشرب الوافدون فناجين القهوة المرّة، وهو شاخص أمام أعينهم بكلّ صلفٍ، يعيدون التّلاوة ويغادرون. ولقد تناقل المُعزّون خارج المجلس أغرب الأخبار مشفوعةً بالإشاعات. ومنها حضور الغائب ذاته في مجلس عزائه. وقيل أيضًا إنّه دخل مجلس العزاء المُقام على روحه بجسده وروحه معًا، وكان يجرّ حقيبةً عرجاء ومرتديا بذلة سوداء. وما انفكّ يبكي نفسَهُ وقد صدّق المشهد بفعل الجوّ العامّ. ليس هذا فحسب، بل حضر أيضًا كلّ أبطال رواياته واصطفّوا بملابسهم السوداء لاستقبال المعزّين وتوديعهم. فبدا جلوسهم في مقدّمة مجلس العزاء، بكلّ وقارٍ ومن دون أدنى ابتسامةٍ، مهيبًا جليلًا)) (8) ـ فقد انتقل الروائي خضير الزيدي بنا إلى التاريخ القريب متمثلا في وفاة الروائي غائب طعمة فرمان مستذكراً رواياته التي انتجها ، ومستحضرا شخصيات تلك الروايات ، لتحاكم صحبها وتحاول الخلاص من الوضع الذي زُجت فيه دخل نسيج رواياته، وشخصيات لروائيين آخرين ، معتمدا على السرد المتناوب في سرد الأحداث بين ما هو حاضر وبين ما هو ماضي . ((خرجت جوقة كبيرة بأزياء شعبيّة، في مقدّمتها أسّومة العرجاء وشخصيّات أخرى، بعضها رئيسيّة وبعضها ثانويّة، من روايات عربيّةٍ شهيرة. فشوهد عيسى الدباغ من رواية "السمّان والخريف"، وشخصيّة زيطة وكمال عبد الجواد من "الثلاثية"، وسعيد مهران من "اللصّ والكلاب". وكلّ هؤلاء يمثّلون نجيب محفوظ. وكان معهم مدحت ومديحة مُمثّليْن لفؤاد التكرلي. كما حضر "اللاز" عن الطاهر وطّار، و"الطروسي" عن حنّا مينا، و"متعب الهذّال" عن عبد الرحمن منيف، مع آخرين يتعذّر حصرهم. ولم تلبث أسّومة أن قالت:دخيلك يا ربّي! عيش وشوف. سوف تنقلب الدنيا. ولا شايفة بحياتي "فاتحة" رنّانة مثلها. لك عيني كلّهم كباريّة. أوّل مرّة أشوف فاتحة نسوان وزلم خلَطْ. ناس متوفّية وناس بعدها. دنيا غريبة وعجيبة!

فردّ عليها حمّادي العربنجي قبل أن يسوق حصانه الهرم:

هو هذا العزاء ألمن؟ والله ما أعرف. قالوا تعالوا تعالوا. روحوا روحوا. شنو أحنه شواذي لو بشر؟))(9) لذا ذهب لوكاتش ((إلى أن العمل الأدبي الواقعي لا بد أن يكشف عن نمط التناقضات الذي يكمن من وراء نمط اجتماعي معين)) (10)

فعمد الروائي إلى تعرية المجتمع وما حدث فيه من عنف أو تغير اجتماعي ، ولا سيما المدينة بغداد ، فالموقف من المدينة يعكس الموقف من الحياة وما تسبب من مآسٍ، ومع أن المدينة والحياة ارتبطت بالعنف والتسلط. لذا جاء شعور الشخصية يتصف بالضيق والنفور منها وجاء الوصف متماشيا مع هذا الضيق، والذي اشعرنا بثقل الجو على الشخصية في هذا المكان الموحش والمتغير .((ومعلوم أنّ فضاء المدينة مُختنق بغبار أسود تفوح منه رائحة القار والكاربون والبارود، وما أشبه ذلك بلوحةٍ عبثيّةٍ لرسّام مخمور، كان يبدّد فكرة الانتحار بالرّسم.)) (11) ويكرر على لسان شخصيته هذه الثيمة التي توحي بالضغط النفسي على شخصية الغائب من خلال التأكيد تغير الأجواء بين بلدين التي توحي بتغيير طبيعة الحياة ((والوصول إلى مطار بغداد وما تبعه من اختلال حادّ في درجات الحرارة. بالمرور من بردٍ وصقيعٍ وأمطارٍ ثلجيّةٍ، إلى أجواء حارّةٍ جدًّا. وكان قد علِم من نشرة الأحوال الجوّية المرتقبة التي سمعها في الطائرة أنّ الهواء في بغداد سيكون مُغبرًّا خانقًا.)) (12)

وبما ان البيئة العراقية تعيش حالة الصراع والمآسي لاسيما بعد عام 2006 سنوات الصراع الطائفي ، فهي بحاجة إلى خيال ليتمكن من الروائي من اصلاح ما يمكن اصلاحه ، وما هذا الخيال إلا نتاج الواقع . ((حدث ذلك في نيسان من العام 2006. كانت الحياة حينذاك تمضي بصعوبة، كأنّها تمرّ من خرم إبرة. وكان الطقس مُضطربًا كدأبه في موسم التقلّبات الجوّيّة الشديدة. وعلى أرض بغداد سرعان ما ينقطع خيط المسبحة، وتتبدّد خرزات المدينة على البلاط. هل تستحق الحياة كلّ هذا الهيجان؟ لا أحد يعلم.)) (13) .

ويصور الروائي حالة الإحباط نتيجة ما مر به الشعب العراقي من عنف ، جعل صورة عمال التنظيف ورجل المرور يشعرون بنوع من خيبات الأمل ، وعدم الرغبة في العمل ، كرد فعل لما تمر به تلك الطبقات الاجتماعية . فحالة الشعور بعدم الانتماء للبلد يجعل السلوك الذي يتخذه الفرد نوع من الرفض للسلطة وخدماتها، فتكون القطيعة بين السلطة والموظف بشكل عام والمواطن بشكل خاص((فرأى المؤلّف الشيخ عمّال البلديّة يتثاءبون بكسلٍ وتثاقلٍ، وهم يحرّكون الركام من مكان إلى آخر. وشرطيّ المرور يعبث بهاتفه، وموظّفين كسالى يقطعون الشّوارع ماضين إلى إداراتهم. وبعد توقّف السيّارة عند تقاطع مزدحمٍ في ساحة متعدّدة المنافذ بحوالي نصف ساعةٍ عبرت نهر دجلة من فوق جسر السّنك ذي السياج المصبوغ بالأخضر الداكن، ففهم الغائب حينئذ أنّه فعليًّا في حضرةِ مدينةِ مخاضٍ دائمٍ تُدعى بغداد.))(14)

فالوضع في بغداد لا يختلف عن يوم القيامة ، لا تكاد تستقر على حال واحدة ((القيامة قادمة لا .ريب فيها. وفي بغداد هي قائمة منذ مدّة، ولكن على دفعات. فأيّ ساعةٍ من اليوم فجرًا كانت أو ظهيرة أو مساءً مفتوحة على كلّ احتمالات العنف والفوضى. وكلّ هدوء نسبيّ هو مُقدّمةٌ لعاصفةٍ جديدةٍ. وبغداد الراهنة لا تُشبه أيّ مدينة أخرى سوى بغداد التاريخ، ولا شيء فيها ثابت إلاّ تقلّب مزاجها. حتّى طقسها يكاد لا يستقرّ على حال)) (15) إن العنف في بغداد أًصبح متجذراً، فتنوع الطوائف التي تؤمن مبادئ معينة وثقافة خاصة ، جعلها تمارس العنف على من يختلف معها في الرأي ، وهي صورة واقعية لما حدث في احتلال بغداد ، فالروائي يشير في أكثر من موضع إلى العنف وعسكرة المجتمع ، والفجائع التي عاشها ، لذا ركز الزيدي على هذه الثيمة باعتبار الرواية مرآة تعكس واقع المجتمع .

فالرواية تصور واقع بغداد الاجتماعي والسياسي في ظل معاناة شخصيات الرواية ، وشعورها بالخيبة نتيجة التحول الشديد في بنية المجتمع .((فهي مدينة من نار وقيظ وفوضى ، مدينة تنشد السلام وتتواشج على بوّاباتها البنادق والخُوَذ. فلا يدري زائرها على من يسخط، أيلعن القدر أم التّاريخ أم السّلطات أم النّاس؟ فلكلّ من حالها نصيب))(16) فالرواية تصور

بغداد كمكان معادٍ ، ينتشر فيها السلاح والعنف والكره ، وتغير طبيعة سكان بغداد ، لتكون متحفزة للقتل والشر والحقد الطائفي ، ليكون النص الروائي أكثر قرباً من واقع بغداد بكل صراعاته الاجتماعية والسياسية لتكون بغداد سوداوية .

فضلا عن انتشار الجماعات المسلحة في إشارة إلى العنف الذي عصف بالعاصمة بغداد ((فلينظر إذن كيف حلّت الانتهازيّة مكان المروءة، والفُرقة محلّ التآلف، واستُبدلت الفوضى بالاستقرار، والعنف بالسماحة. ولْينظُرْ أيضًا إلى أفخاذ القبائل المُسلّحة المنتشرة في كلّ مكان، حتّى بالقرب من تمثاله)) (17) تلك الجماعات التي تعتمد على الابتزاز مستخدمة القوة المفرطة والتهديد ((أنّه استسلم لضغوط جهةٍ إسلاميّةٍ شرسةٍ تستخدم السّيوف والقنابل في التّرهيب. وبعد تهديداتٍ وضغوطاتٍ متواصلةٍ، باعهم العقار بسعرٍ بخسٍ، مستغلاً توكيلاً قديماً مزيّفًا، لكنّ مُصيبته الأعظم من بيع العقار أنّه لم يستلم من الجهة المذكورة إلاّ العربون، إذ لم يتورّع أولو الأمر فيها عن الخداع والمُخاتلة، فادّعوا أن ذلك العقار مالٌ سائب مجهول المالك، وأنّه كماء المطر، والنّفط في باطن الأرض ملك لمن يضع يده عليه. وظلّت الحقيقة مُخفاةً حتّى عن أقرب المقرّبين من عائلة البيرقدار. وهكذا وقع المحامي المُنافق في شرَك أقدر الناس على لعبة الترغيب والترهيب، وما كان ليستطيع التصدّي لهم وهو لا يملك سطوةً كسطوتهم ولا حتّى زبيبة سجودٍ يرتقي بها إلى مصافّهم.)) (18)إن حالة التمزق التي عاشتها بغداد لم تكن بمعزل عن الشخصية البغدادية التي عانت من التمزق الاجتماعي ، وتقاطع القيم وانتشار الفساد ، ليكون الموت هو العنصر المسيطر في النص . وقد تناول الزيدي هذه الثيمة من خلال البعد تحليلي والتصويري الذي يتجاوز التقليد في البناء والاعتماد على الابعاد الجمالية والتقنيات السردية المتعددة من أحلام ومخطوطات وواقعية سحرية وتشظي زمني .

لذا يلجأ الروائي على استحضار شخصية (سليمة) أحدى شخصيات روايات غائب طعمة فرمان (النخلة والجيران) لينتقد الأوضاع على لسانها ((خرجت سليمة من سجن الرواية تنّدب حظها العاثر ما بعد عالم "النخلة والجيران". كانت تبحث عن حياة أخرى تلائمها في الحيّ الّذي ولدت فيه. لكنّ كل آمالها تحطّمت على عتبات البيوت، إذ تحوّلت إلى مخازن لجمع البضاعة وتوزيعها على المحافظات. لقد التهمت المحالُّ البيوت في حي المربّعة، حتّى صارت المدينة بطنًا وأحياؤها أمعاء. بعد خروج سليمة من الرواية بأيّام معدودات، أصيبت بجلطة قلبيّة وحُملت إلى المستشفى)) (19) فكل شيء قد تغير في بغداد ولم تعد الحال كما هي ، إلى درجة لا يستطيع أحد الصمود إمام هذه التغيرات العنيفة ، لتفقد بغداد هويتها الحضارية وعلى لسان شخصية الغائب ((كان يجرّ حقيبةً عرجاء في الأزقّة الضّيّقة، باحثًا عن سرّ المدينة، عن حقيقتها المفقودة. ينبش كأنّه منقّب آثار ويزيح الطّين عن رقم مدفون في قاع حيّ المربّعة. لا وجود لنخلته الحزينة، التي وُلدت تحتها شخصيّات رواياته.لا أحد يرشده إلى "أسومة العرجة"، العارفة الوحيدة بالحكاية السرّية في رواية النّخلة والجيران. لم يجد من يدلّه على "منطقة العمّار" المقابلة للمربّعة، حيث حكاية البنت تماضر. ثمّة شخصيّة مرسومة تركها في مسوّدة الرّواية الأخيرة على مائدة غرفته في المصنع. شخصيّة غامضة تشبه جبر الشُّوك، هي الخيط الرّابط بين حكايات بناته الضائعات))(20) فالعنف والضبابية هي صورة التي قدمها الروائي للمجتمع العراقي المنسحق ، وهي تصور اجواء الفجيعة والانكسار .

فالقطعات العسكرية التي اجتاحت بغداد وتحولها إلى ثكنة عسكرية هو تصوير لما آلت إليه الأوضاع المأساوية ((أصوات أقدام تضرب الأرض بقوّة. قبّعات عسكريّة طائرة في الفضاء. خُوَذٌ رمليّة اللون حوّلت الشارع صحراء. قمصان مرقّطة كأنّها فئران هجينة. دروع من لحم تخفي خلفها مدرّعات من حديد... هذا ليس شارع الرّشيد، بل ثكنة عسكريّة. في الجهة الأخرى من الشّارع، بالقرب من بناية السّينما الثّكلى، انتشرت ورشات الحدادة. أجهزة القطْع والثَّقْب

والصّقْل تعوي على الرصيف، ومضخّات الهواء تزفر لتُذكّر بالعاصفة. ولا يُسمع غير أنين الحديد. يبدو أنّه أمر دُبّر بنهار لاستقبال غائب على تلك الصورة الوحشيّة.))(20) فالروائي لم يلجأ إلى التحليل النفسي للمشاهد في بغداد بل لجأ إلى الصور الحسية ليعبر عن نسق الموت والعنف الذي أصبح سائداً في المجتمع .

هذا العنف لم يكن مادياً فقط بل انسحب على الثقافة والأدب ليشكل عنفا نفسيا ، فالضابط الذي يمثل السلطة ، لم يتعرف على غائب الروائي في المطار حتى بعد أن عرف بنفسه في إشارة إلى جهل السلطة ، وتسلم زمام الأمور لشخصيات لا تفقه من الحياة شيئا ، وهذا ما يتضح في الحوار الخارجي بين الروائي غائب وضابط المطار ((؟ أنا كاتب. وهذا خير ما يُمثّلني.

كاتب عدل؟ أم كاتب عرائض؟ كاتب ماذا يا سيّد؟ وضّحْ ما تقوله!

لا طبعاً. أنا كاتب روايات عراقيّة.

أمممممم..... لو تسمعنا بيتا أو بيتين من رواياتك لعلّ ذلك يُنشّط ذاكرتي. هل تشعَر؟

مستحيل! ما زالت الكارثة ذاتها قائمةً. أمَا سمعت بـ"النخلة والجيران"؟

لا والله، لم يحصل لي الشّرف، ولم أتشرّف أيضًا بجيران النخلة من المغادرين أو القادمين، بل لم أذق ثمر نخلةٍ طوال حياتي.

كارثة أخرى!

قال عبارته الأخيرة جهرًا، ثمّ أضاف في سرّه: "يبدو أنّه لا نخلة ولا جيران... يا فرمان! هل كنتُ على صواب إذ قرّرت العودةَ إلى بغداد وأنا في هذا العمر؟ ربّما ما أتيتُه خطأ آخر يضاف إلى الرّصيد الإجماليّ.)) (22) فالحوار يعكس الجهل المركب لمن في السلطة لذا جاء انتقاد السلطة وطريقة التحقيق التي لا تختلف في العراق منذ الأزل ((. ولم يلبث أن عاود النظر إلى وجه "الغائب" ورماه بشبه ابتسامةٍ فاترةٍ خرج بعدها المفتّش وهو ينقر بأصابعه على جواز السفر، وقال لمالكه:

تفضّل معي إلى تلك الغرفة في نهاية الرّواق.

لماذا؟ هل هناك مُشكل ما في أوراقي الرّسميّة؟

لا. مجرّد تحقيق بسيط. وبعد بضع دقائق ستكون حرًّا.

كلّ تحقيقاتكم يُقدّرُ زمنها بالدقائق، ثمّ تستمرّ أعوامًا. أعرف ذلك. منذ العهد الملكيّ وجمهوريّات الرّعب وأنتم سائرون على النهج نفسه.))(23) وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا العنف إلى تدمير كل ما يوحي بالثقافة بل حتى النصب والتماثيل ((وفي الخارج كانت بغداد تغلي بخبر التمثال الذي حطّمه شخص يُشتبه في أنه ينتمي إلى مجموعة متطرّفة، وعندما وصل المحامي إلى موقع الحادثة كانت الشرطة في كلّ مكان. فبعد أن تخلّف هاني عن موعده مع دلال، طلبت من الشُّوك أن يبحث عنه. لكنّه عاد إليها من دونه وقال:

لا أثر له يا حبيبتي...)) ليكون تعبير الناس حول الموقف هذا خلاصة لما آلت إليه الحياة في العاصمة ((ولمّا بلغ المحامي ساحة الوثبة، رأى حشدًا عند التمثال فنظر إلى حيث ينظر الناس وفهم الخطب من دون أن يحتاج إلى سؤال. حتّى إنّه لم يتمالك نفسه وقال بصوت عالٍ: "يا إلهي، من فعل ذلك؟"

فسمعه شخص كان حذوه وأجابه بصوتٍ أكلته الحسرة:

ومَن غيرهم؟! لا يسلم منهم لحم ولا دم ولا حجر. دمّروا حياتنا وها هم يدمّرون رموزنا. اللعنة عليهم.

اللعنة... اللعنة.)) (24).

وهذا العنف امتد إلى النساء وتغير الظروف الثقافية والاجتماعية بشكل كبير في العاصمة ، مما جعل الشخصية تعيش حالة من الازدواجية بين طابعين متناقضين((يجب أن تتحوّلي عراقيّة تشبهين كلّ النساء السائرات كالغربان السّود في زيّ أجمعوا على وجوبه. وهو الشيء الوحيد المتّفق عليه هنا. السّواد لغتنا السائدة. وهو اللون الآمن في بغداد اليوم.))(25) فاللون الأسود الذي ورد في النص يدل في الثقافة العربية على التشاؤم في كل شيء في الطيور والحيوانات واللباس والبشر ، فقد عبّر في معظم الإشارات عن العماء و السلب و الموت و التشاؤم و القبح , اذ يرى علماء النفس في تفسيره نفسيا أن ((اللون الاسود من أشد الألوان قتامة وفي الحقيقة هو عبارة عن نفي اللون , واللون الاسود يمثل الحدود المغلقة التي بعدها تتوقف الحياة, ولذلك فهو يمثل فكرة العدم والانطفاء والأسود يمثل (لا) بينما الابيض يمثل (نعم ...، الأسود هو النهاية التي بعدها لا يوجد شيء))(26) وهو يؤكد على اللون الأسود مرة أخرى، وعدم الثبات على شخصية واحدة في إشارة إلى ازدواج الشخصية وتناقضها في المجتمع العراقي

((- هاني، هذه الكرادة منطقة حلوة. والبنات هنا متحرّرات من قيود الزّيّ المفروض.

- نعم هذا صحيح، ولكن مؤقّتًا.

- ماذا تعني بـ"مؤقّتا".

- كلّ واحدة منهنّ تحمل في حقيبتها أزياء الطّوارئ. حجاب وعباءة إسلاميّة سوداء، للضرورة.

وما هي إلّا لحظات حتّى شاهد سيارة "بيك آب" دون أرقام وفيها مجموعة مسلّحين ملتحين، وعندئذ أسرعت السّافرات إلى المحالّ ليُنهين السفور بالتخفّي. فأضاف هاني:

-هل تعلمين أنّ بنات اللّيل يخرجن من بيوتهنّ مرتديات الزّي الأسود والبرقع؟ وعندما يدخلن الملاهي يخلعن تلك الأزياء فتظهر ملابس العمل.)) (27) هذه الصورة تختصر المشهد العراقي في أجواء التسلط والعنف وانتشار الاسلحة ، التي أصبحت سائدة في المجتمع ((الصكّاك والعلّاس" مهنتان تدرّان أموالا، وليكن في علمك أنهما شرعيّتان. هؤلاء قوم يشترون البشر ويبيعونهم، وتجارتهم ككل تجارة رهينة العرض والطلب. والطلبيّات كثيرة هذه الأيّام. إنّهم محترفون في اختطاف النّساء أو اغتيالهنّ، حتى الرّجال ليسوا بمأمن من ذلك، والتسعيرة تحدّد حسب مكانة الضّحية. العلّاس يعاين الهدف ويحدّد أماكن حركته. أمّا الصّكّاك فينفّذ مهمّته في الوقت المناسب، ثمّ ينسحب إلى الصّلاة، بعد أن يلتهم الأفخاذ المشويّة))(28). فهو يصور صراع الجماعات والمنظمات والجمعيات فيما بينها ، ولعل هذه الجمعيات في حقيقتها إشارة إلى الواقع العراقي وما فيه من تشظي سواء على مستوى الشعب أو على مستوى السلطة .

لقد اعتمدت الرواية على فكرة الاستدعاء كما في استدعاء الروائي غائب طعمة فرمان الذي توفي 1990 والفيلسوف الفرنسي رولان بارت الذي توفي عام 1980 . وهذا الاستدعاء لم يكن عبثياً بل جاء ليعيد التاريخ أولاً ويعقد موازنة بين الماضي والحاضر ثانياً ، فاستدعاء الأول جاء ليعكس أوضاع بغداد في روايات غائب طعمة فرواياته صورت وأرخت لبغداد والعراق قبل 1958 وبعدها فكانت رواياته تفصيلا للحياة البغدادية حتى منتصف السبعينات ، وتعلقه بالمكان الذي

نشأ فيه ، فضلا عن التغيير الذي كان ينشده في وطنه . اما استدعاء رولان بارت من خلال شخصية (هاني بارت) التي وظفها الروائي للبحث عن الغائب فهي شخصية تتعمق في واقع بغداد الحالي لتكشف التحولات التي حدثت وتحدث . فضلا عن زيف وتلون المثقف الذي يجب ان يكون قائداً للتغيير المنشود ولكن الحقيقة الصادمة عكس ذلك فهو أنسان فوضوي وهمي يعيش على الهامش ويبحث عن صغائر الأمور. ويتخيل ما لا يمكن تصدقيه فيتحدث عن زيارة (رولان بارت) إلى بغداد بدعوة من جمعية عراقية . ومثلما عاشت الشخصيات عند غائب طعمة حالة الضياع والتشتت عاشت شخصيات الزيدي حالة من النكوص والضياع .

فإن الأديب مهما كانت عزلته عن المجتمع حين يشرع في إبداع النص ، ينجرف من غير أن يشعر إلى المجتمع ليصور الحياة وأسرارها، ويحمل هموم الناس لاسيما خاصة تلك التي تتعلق بالثقافة والسياسية (29) لذا وجه الروائي نقده وتشخيصه إلى شخصية المثقف ، فهي من الشخصيات التي تنتمي للطبقات الشعبية التي تعاني من الفقر والتهميش ، ومثلتها شخصية (هاني بارت) بصورة تميل إلى السخرية فهو لا يغير المفاهيم الخاطئة التي تشيع في المجتمع ، فهو مثقف سلبي يغض النظر عما يحدث في مجتمعه ، ويتجاهل قضاياه المصيرية . من هنا ذهب علي حرب إلى القول في الإشارة إلى بعض المثقفين أن بعضهم ((يدعي التجرد والنزاهة والانسلاخ دفاعا عن قضية الأمة ومصالح الناس ، فيما هو يمارس مهنته ويدافع عن مصلحته ، أو يلعب لعبته ويجرب فكرته . إنه يدعوك إلى التحرر من سلطة رأس المال ، في حين هو يراكم رأسماله ويثبت سلطته))(30) فهو قد غير من المبادئ التي يؤمن بها من أجل تحقيق طموحاته ومصالحه الشخصية . فحين تعرض لمغريات المال سار في ركبه وتخلى عن مجموعته التي تؤمن به . ليتحول إلى مثقف غير منتم ((كان هاني قد وصل إلى الفصل التاسع عشر عندما بدأت تحوم حوله الشائعات وتكال له التّهم: "باع وطنه من أجل الدولارات"، "بل من أجل أنثى"، "ذلك العميل، صار خادمًا لدى قوّات الاحتلال في الخفاء"، "في الخفاء! بغداد كلّها تعلم"، "كيف لم تقع تصفيته إلى الآن"... بلغته كلّ هذه الأقاويل وغيرها، لكنّه لم يعرها أيّ اهتمام. فهو أمام معضلة أخطر)) (31). لذا يظهر المثقف في الرواية وهو ينتمي إلى هذه المنظمات وقد شغل نفسه في توافه الأمور من تلاعب بالألفاظ والأموال والجنس.

وهذه المشكلة لم تكن فردية بل جماعية ، فظهرت في المجتمع العراقي جمعيات لا حصر لها ، اطلق عليها الروائي تسميات مثيرة للسخرية والتهكم ((وهناك في الشارع المرتبط بالثقافة اسمًا وواقعًا كانت الأرصفة على حالها المألوف، تعجّ بكتّابٍ ومثقّفين، وعاطلين عن العمل، فيهم الشغوفون بالتّراث والمنتصرون للحداثة، والطامعون في بعض الشّهرة، من جماعة "كسر الأنماط" الأدبيّة النّاشئة، أو "فقراء الرّواية الجديدة"، أو من أولئك النّاشطين في جمعيّة "بيتنا ونلعب به". جمعيّة واعدة بلغت شهرتها الآفاق ما يفوق بكثيرٍ شهرة "جماعة الرصيف" اللّغويّة المحافظة. والمُشترك بين هؤلاء كلّهم توخّيهم نمطًا مُعيّنًا من السلوك لتحقيق الحضور المرجوّ في المشهد الثّقافيّ. وأغلب الجماعات المذكورة أشيع عنها تلقّي الدعم من الخارج، باستثناء جماعة البطالة السّافرة التي أدمن المنتسبون إليها مدح الكسل وتمجيد التّهاون، وأكل الفلافل الرّخيصة، وشرب الخمرة المغشوشة.))(32)

رواية بنات غائب طعمة فرمان واحدة من الروايات الجريئة في نقد الصراع الطائفي ، والتحول الخطير في بنية المجتمع ، ونقد الطبقات الحاكمة وتعريتها ، فهي تعيش التناقض بين واقعها المأزوم الذي كانت عليه وما آلت إليه من تحكم في مصائر البلد ، معتمدا على التخفي من سلطة الرقيب وعلى لسان شخصيات روايات غائب طعمة وتوقع مصيرها الواقعي والوصول إلى مناصب عليا في الدولة مما لا يتناسب مع ما تحمل من وعي ثقافي ومعرفي . ليوجه سهامه النقدية

للسلطة الحاكمة ((وسأتابع أيضًا ما حصل لـ "صاحب البايسكلجي" وحمّادي العربنجي في هذه المدينة. ربّما تحوّل البايسكلجي إلى سياسيّ معروف في واحدةٍ من القوى السّياسيّة، وهذا أمر طبيعيّ وفق نظريّة التّطوّر. حتّى "ابن الحولة" من الممكن أن يصبح رجلًا ورعًا وصاحب دينٍ وتقوى، وكذلك تماضر قد تغدو سياسيّةً ونائبةً في البرلمان، وهذا أمر أصبح مألوفا. لكنّ المشكلة في شخصيّة "مصطفى الدلّال"، فهو الوحيد الذي سيعبث بدبلوماسيّة وزارة الخارجيّة. وهذا الأمر متوقّع الحدوث بالنظر إلى التحوّلات المريبة.))(33)

الخاتمة

- ـ يعتمد الروائي على الأحلام لبناء نصه الروائي وأحيانا أخرى على الهلوسات التي تعيشها الشخصية أو العجائبي الذي يعمل على خرق المألوف ، فيطرح الأسئلة على لسان شخصيات ورقية بعد ان يستدعيها من روايات غائب طعمة لتحاكم صاحبها، أو لتحاكم المجتمع الذي كان سبباً فيما وصلت إليه .
- ـ لقد عمد الروائي إلى تكسير الزمن ، وعدم السير على وفق البناء التتابعي ، بل لجأ إلى التلاعب به بالاعتماد على تقنيات الاستباق والاسترجاع والتداعي
- ـ لقد جعل الروائي خضير الزيدي القارئ يتأرجح بين عالمين الواقعي والمتخيل ، وهو ينتقل بين هذا وذاك ، ليواصل قراءة روايته ليكشف إلى ماذا تؤول الاحداث . لذا الروية حاولت توهمنا بواقية الحدث وصدق حقيقة الأسماء والأماكن التي حددها في بغداد ، إلى درجة تجعل القارئ يشك بواقعية ما يقرأ.
- ـ تعيش الشخصيات سواء أكانت مسحوقة أو منعمة حالة من التيه والصراع الداخلي أو الخارجي ، فهي تعيش الصراع مع غيرها من الشخصيات أو الصراع مع مخاطر المجتمع الملتهب لاسيما ان عام 2006 في العراق هو عام الصراع الطائفي في ذروته .

الهوامش والمصادر:

1- ينظر : البنية والدلالة في روايات ابراهيم نصر الله ، مرشد أحمد ، دار الفارس للنشر والتوزيع ، الأردن ، 2005 ص90

2- دراسات في النقد الأدبي المعاصر ، زكي العشماوي ، بيروت ، دار لنهضة العربية ، 1986: 177

3- اليات السرد في تشكيل بنيات النص السحري (كمقارنة أسلوبية لرواية حارث المياه) نجاتي داوود، سعدي أحمد ، مجلة الخطاب ، العدد 59 جامعة تيزي وزو ، 2018 ص 193

4- ينظر : الفضاء الروائي بين الواقعي والمتخيل ، رشيد بن حد ، المجلة العربية ، الدار العربية للنشر والترجمة ،العدد 527 الرياض ،2010 ص 67

5- المرآة والخارطة ، دراسات في نظرية الأدب والنقد الأدبي ، روبرت شولز ، ترجمة : سهيل نجم ، دمشق ، دار نينوى ، 2001 : 59

6- التمثيل التأويلي للتاريخ في الرواية ، عادل العناز ، دار الثقافة ـ الشارقة ، 2019 : 31

7- بنات غائب طعمة فرمان ، خضير فليح الزيدي ،منشورات ميسكلياني ، تونس ، 2024: 67- 68

8- المصدر نفسه : 8 ـ 9

9- المصدر نفسه :11

10- النص الأدبي من منظور اجتماعي ، مدحت الجبار ، دار الوفاء ، الإسكندرية ، مصر ، 2001: 59

11- بنات غائب طعمة فرمان: 15

12- المصدر نفسه : 19

13- المكان نفسه .

14- المصدر نفسه : 38- 39

15-المصدر نفسه:57

16- المكان نفسه .

17- المصدر نفسه :59

18-المصدر نفسه :106

19- المصدر نفسه : 117

20- المصدر نفسه : 157

21- المصدر نفسه : 158

22- المصدر نفسه : 21

23- المصدر نفسه :23

24-المصدر نفسه : 195

25- المصدر نفسه : 128

26- اختبار الألوان وقياس الشخصية: ترجمة واعداد : د0أنور رياض عبد الرحيم , دار حرّاء 1985: 62-63.

27- بنات غائب طعمة فرمان : 142

28-المصدر نفسه : 129

29- ينظر نظرية الأدب في النقد العربي المعاصر ، شايف عكاشة ، ديوان للمطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1994: 2/ 53

30- أوهام النخبة أو نقد المثقف ، علي حرب ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 2004، ط3 : 58

31- بنات غائب طعمة فرمان : 165

32- المصدر نفسه : 78- 79

33- المصدر نفسه : 37